تفسير سورة الطور (2)

ويلزم من توحيده أن يوحد الله جل وعلا في الإلهية وأن من وحد الله في الإلهية فإن توحيده ذاك متضمن ولو لم يذكر متضمن إقراره بأن الله هو الرب وحده دون ما سواه لأنه إذا عبد الله وحده دون ما سواه فمعنى ذلك أنه موقن بأن النفع له والضر عليه إنما هو بيد الواحد الأحد الذي عبده وأن مصيره ومرجعه إلى هذا الذي عبده وهذا كثير في القرآن ومنها هذه الآيات فذكر بعض أفراد الربوبية بقوله أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون هذه صفة الخلق وكذلك في صفة الرزق قال أم عندهم خزائن ربك هذه صفة الخلق وكذلك ذكر صفة القهر والملك ، مَلِك الملكوت والتدبير وقال أم هم المسيطرون ثم ذكر صفة من صفاته وهي صفة العلو قال أم لهم سُلَّمٌ والسلم هو المعراج الذي يُرقى إلى السماء به أم لهم سُلَّمٌ يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطانٍ مبين ثم ذكر أيضاً صفات له صفات تنزيهية فقال أم له البنات ولكم البنون وهذا مما ينفى عن الله جل وعلا لكمال غناه وكمال قيوميته سبحانه .. إلى آخر الآيات فإذا اشتملت على نوعي التوحيد ، الربوبية ، والأسماء والصفات ولهذا قال في آخرها أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون لأن نوعي التوحيد يستلزمان هذه النتيجة أم لهم إله غير الله والجواب : أنه لا إله لهم غير الله ، كما قال في سورة النمل أءِلهُ مع الله سبحان الله عما

يشركون ، أءله مع الله بل هم قومُ يعدلون أءِله مع الله .....ـ إلى آخر الآيات مما فيه إنكار .
إذا تقرر هذا ففي هذه الآيات حث على التفكر في أفراد الربوبية فقال جل وعلا أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون والاستفهام هنا إما أن يكون للإنكار أو يكون للتقرير . وإذا كان للإنكار إنكار ظن طائفة أنهم خلقوا من غير شيء وإذا كان للتقرير ، فهو تقرير ضد ما ذكر هنا وهو المعروف في الجواب أم خلقوا من غير شيء لا لم يخلقوا من غير شيء أم هم الخالقون لا لم يخلقوا أنفسهم ففيه تقرير للقسم الثالث ، لأن الأقسام بالصبر والتقسيم ثلاثة : ـ

1 : ـ إما أن يكون الله جل وعلا هو الذي خلق .
2 : ـ أن يكونوا خلقوا أنفسهم .
3 : ـ أن يكونوا خُلقوا أو جاءوا من غير شيء .

ومعلوم أنهم إذا قالوا جئنا من غير شيء فهذا ينافى الواقع . فهم جاءوا من ماء مهين ، وتحلق في رحم الأم ، والثاني أنهم هم الخالقون هذا لا يّدعونه لأنفسهم . فبقي الاحتمال الثالث . وهذا نوع من الأدلة القرآنية ، وهو إيثار المسائل بالصبر والتقسيم ، ومعلوم أن الصبر والتقسيم وهو ما يسميه بعض العلماء بدليل الترديد هذا يصلح أن يكون دليلاً مستقلاً لأن إبطال الاحتمالات غير الواقعة وإلقاء الاحتمال الأرجح هذا نوع من البرهان ، ولهذا تجد في الفقه الذي هو من الظنيّات نأتي للأدلة ونقول هذا كذا وهذا كذا وهذا كذا يعنى من حيث الأدلة هذا الدليل يرد عليه كذا وكذا يصلح هذا يرد عليه كذا وكذا فلا يصلح . والثالث هو الذي يصلح لقلة الإيراد عليه ، وقد ذكر الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه

الله أن معرفة الصواب المحض من الخطأ المحض . هذا يدركه أكثر الناس الصواب المحض من الخطأ المحض ، وأما معرفة أقوى الدليلين وأقرب القولين للصواب مما يتنازع فيه من المسائل الاجتهادية إنما هذا هو حظ العلماء لأنهم هم الذين يرجحون هذا الدليل على غيره ، وهذا الاستدلال على غيره من جهة قوته وضعف مخالفه . ومن هنا لا يتصور أن مسألة يعنى من المسائل الفقهية العلمية لا دليل عليها البتة وكذلك كثير من المسائل العلمية في العقائد وفي غيرها ، لكن إذا كان الإيراد عليها كثيراً والإيراد على غيرها قليلاً فما كان الإيراد عليه كثير فهو ضعيف ، لأنك لا تتصور في العلم أن هناك مسألة القول فيها هو كذا لأجل عدم الدليل للقول المخالف البتة ، وهذا غير موجود ، إلا في مسائل نادرة وقليلة مما أحدث من البدع أو الأقوال التي لا أصل لها فقد يكون هنا دليل من القرآن أم من السنة ، قد يكون هناك دليل من القواعد ، قد يكون هناك دليل من القياس ..... إلى آخره .

فشأن العالم أن يرجح أقوى الدليلين من الجهة الشرعية ، أن يرجح أقوى الاستدلالات من الجهة الأصولية ، أن يرجح أقوى الحكمين من الجهة الاجتهادية فإذا نظر نظراً شرعياً فرجح فهذا هو العلم ، ولهذا نقول إنه في المسائل العملية مثل ما ذكرنا . أما في المسائل العلمية سواء كانت في الصفات أو في الربوبية أو في الألوهية ، أو في كثير من المسائل المتصلة بهذه والوسائل إليها قد تجد اعتراضاً ، قد تجد على ما يقوله أهل السنة إعتراضاً ، ولكن الاعتراض على غيرهم أكثر بكثير جداً بل لا نسبة بين هذا وهذا يعنى في بعض المسائل في

تقريرات أهل السنة علي مسائلهم . قد يكون هناك اعتراض للمبتدعة وقد تأنس بعض العقول بهذا الاعتراض ولهذا راج كثير من الاعتراضات على كثير من الأذكياء راجت كثير من الاعتراضات على بعض العلماء الكبار سواء في مسائل توحيد العبادة والوسائل إليها أو في الصفات ، أو في دلائل النبوة ، أو في مسائل الإيمان ، القدر وفي غيره . ما السبب ؟ .
السبب أن لهم شبهة دليل ، ولكن هذا الدليل ليس هو الدليل الصحيح في نفس الأمر ، ليس هو الدليل الراجح في نفس الأمر ولهذا من أعظم ما تجعل نظرك منصباً إليه أن تفهم كيف يرجح بين الأدلة ، كيف يرجح بين الاستدلالات وإلا فلا يتصور أن قولاً من الأقوال لا دليل عليه البتة ، لا من النقل ، ولا من العقل لأن الناس لابد أنهم نشأوا عن برهان ، يعنى لا يفترض فيهم أنهم نشأوا عن هوى في مسائل الصفات ، وفي مسائل الإيمان لا بل قالوا : لا . الدليل كذا ، كالمعتزلة والجهمية عندهم أدلة عقلية . لكن هل الدليل في نفسه هو الصحيح أم لا .فلهذا نقول إن من أحسن الاستدلالات استدلال القرآن في المسائل العلمية والمسائل العملية ، بل هو أحسن الأدلة هو القرآن وأحسن أوجه الاستدلال هو القرآن , كما قال جل وعلا ومن أصدق من الله حديثاً سبحانه وتعالى الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها وحتى في أدلته العملية هو أحسن الحديث . سبحان من تكلم به ومن الأدلة في القرآن الأدلة العظيمة الصبر والتقسيم .
تحصر الأوجه ثم يقال : هذا كذا وهذا كذا فيبقى الوجه الثاني لو لم تكن الأدلة عليه كاملة ، لكن

يبقى هو لأنه يقيني ، لهذا تجد أن بعض الذين تشككوا في خلقهم ومن الخالق ، وهل هم الذين خلقهم الله جل وعلا . لو تفكروا لوجدوا أن الاحتمالات لابد أن تلغى ويبقى هذا الاحتمال يعنى الصبر والتقسيم هو الصحيح كما قال جل وعلا هنا أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون يعنى يا أمّا السماوات والأرض جاءت هكذا أو أنهم خلقوها أو أن الله خلقها ماضيه رابط يا إما إنها جاءت هكذا ، وهذا يترتب عليه أشياء يعنى يمكن أن نقول ، أنها جاءت هكذا لكن هل يعقل ؟ هل يعقل أنها جاءت هكذا . هل يعقل أن السماوات ٍوالأرض على هذا النظام البديع هكذا جاءت القافاً بما في خصائص الأرض وخصائص الشمس وخصائص القمر وما يحصل لأهل الأرض من التسخير بالشمس والقمر بالنجوم وبالأفلاك وبشكل السماء وهذا الجمال الذي فيها ، وهذه الألوان وهذه الخصائص وقعت هكذا يضعف هل هم خلقوها . هذا باطل لأنه لا أحد يدعيه لا شك أنه يبقى أن الذي خلق هو الله جل وعلا هذا كثير في القرآن يدعو الله جل وعلا إلى التفكر في هذا قل إنما أعظمكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا وقوله مثنى وفرادى هذا فيه تنبيه إلى أن الدلائل النظرية ، الدلائل التي هي عن طريق النظر والاستبصار في الملكوت ، بل وفي ما فيه برهان ، هذا إذا اجتمع الناس فيها انحرفوا فيها عن الصواب ، وإذا رجع الواحد إلى نفسه أدرك الصواب لأن كما قر العلماء السلوك والنفس العقلية الجماعية ، غير العقلية الفردية فإن الإنسان قد يكون له عقل في جماعة يعنى من الناس في

مجلس أو في فئة أو في مدرسة أو في غيره ، يكون له عقل في الجماعة من جهة الحماس له لكنه إذا انفرد بنفسه وتأمل وجد أن البرهان ليس على هذا ، ولهذا دعى الله جل وعلا المشركين إلى أن يكون برهانهم عن طريق التفكر إمّا مثنى أثنين يتناجون بالبرهان الصحيح وإما فرادى ، وأما العقلية الجماعية فإنه تصرف عن الحق في كثير من الأشياء لأنه يصبح المرء لا يفكر بعقله ، يفكر المرء بعقل غيره ، وغيره أيضاً لا يفكر بعقله . بعقل الغير ثم يتحكم في المجموع آراء ليس لها خطم ولا أزمَّه وهذا الذي حصل مع أعداء الرسل ، فإنهم إذا اجتمعوا صار لهم كلام ، وإذا تفرقوا مثل ما حصل في قصة الثلاثة الذين سمعوا تلاوة النبي في مكة كل يُقرّ أن هذا الحق بمفرده ، لكن لما اجتمعوا أنكروا ذلك ، وهذا أيضاً مما يحصل به معرفة البرهان وهو أن لا يكون البحث فيه بحثاً بعقلية تعددية بل بعقلية فردية ، وهذا من فوائد هذه الآية ، والفوائد كثيرة في القرآن في المسائل العلمية والعملية والشرعية والقدرية وأنواع ذلك فالقرآن لا تنفذ خزائنه ولا يبلى على كثرة الرد سبحانه تكلم به .

نكتفي بهذا أو ننتقل للي بعده .

س : ـ

لا مسائل أصول الدين نقول يقينية علمية إذا ما صار فيها إجماع مبنى على ما هو قطع للدلالة فهذا يصير غير ظن يقين ، الفقه كما هو معلوم ظني . أصل الفقه ظن . إلا المسائل المجمع عليها المتفق عليها التي لا خلاف فيها ، فهذه تكتسب القطعية ، أو ما هو معلوم من الدين بالضرورة .

قال تعالى : وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم * فذرهم حتى يلاقون يومهم الذي فيه يصعقون * يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون * وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون * وأصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم * ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . اللهم صلى وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين .... أما بعد .

فهذه طائفة من الآيات ختمت بها سورة الطور ، وسورة الطور كما ذكرنا لكم في أولها مشتملة على حال المعاد ، ومصير الكفار فيه ومصير المؤمنين ، وحال الكفار في هذه الدنيا وكيف أنهم لم يؤمنوا بآيات الله جل وعلا مع ظهور البرهان والدليل على وحدانيته سبحانه وتعالى كما في قوله أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون إلى قوله أم لهم إله غير الله ثم قال سبحانه بعد ذلك وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم .

الكفار الذين عاندوا الرسالات ولم يؤمنوا بما أنزل الله جل وعلا يطلبون دائماً الحجة ويتظاهرون بأنهم لم يؤمنوا لأنه لم يقم البرهان الواضح ، ولو جاءتهم آية لآمنوا . وهذا في القرآن كثير . ومجيء الآية التي طلبها الكفار تارة يطلبون أن تكون الآية على

الرسول أن تنزل عليه ، وتارة يطلبون أن تكون الآية نازلة عليهم كما في قوله وقالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله الله اعلم حيث يجعل رسالته ، وتارة يطلبون الآية أن تكون مع الرسول مصاحبة له كإنزال ملك يمشى معه .
وهذه الآيات التي طلبوها ليسوا صادقين فيها في أنهم إذا جاءتهم الآية آمنوا ، بل كلما جاءتهم آيةٍ لم يؤمنوا . الكفار أهل القديم وأهل الحديث جميعاً وإلا فآيات الله جل وعلا ظاهرة بينة كثيرة .
الآيات المرئية . والآيات المسموعة لو عقلوا وأدركوا لعلموا عظم الاحتجاج بها
الآيات التي كذب بها الكفار جاءت في القرآن بيان أنهم كذبوا بما جاء من الآيات وتمنوا آياتٍ هي أقل مما جاءهم وهذه الآيات التي تمنوها هي على قسمين : ـ
الأول آيات كونية . وهذا مثاله ما جاء في هذه الآية وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم وكقوله ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون وأشباه هذا في سور الأنعام ويونس وغير ذلك . والنوع الثاني : أن الآية طلبوها في الرسول تحدياً ، يعنى أن تكون الرسالة لهم أو أن يكون الرسول منهم كما في قوله وقالوا لو نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم فهم تحكموا في المرسل إليه وتحكموا أيضاً في آيات الرسول ، فطلبوا هذا وطلبوا هذا ، مع أن الآيات الكونية جاءتهم بأعظم مما طلبوا فقد جاءهم انشقاق القمر الذي هو أعظم من سقوط كسف من السماء . أو فتح السماء كما قال سبحانه اقتربت

الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر رأوا القمر فرقتين فرقة ذات اليمين وفرقة ذات الشمال وما صدقوا قالوا سُحِرنا . كما أجاب الله جل وعلا طلبهم في قولهم افتح لنا باباً من السماء ، لو أنهم فتح لهم باب لقالوا إنما سُكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون فإذاً أعظم من فتح الباب لهم أن يقسم شيء لهم في السماء آية عظيمة التي هي القمر تقسم قسمين . وهذه لا يستطيع بشر أن يؤثر فيها بلا شك فهي آية من أعظم الآيات اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهوائهم وكل أمر مستقر إذاً فالقرآن كله حِجاج . الحِجاج مع المشركين لإقامة الحجة عليهم . والله جل وعلا جعل أمثلة لما طلبوا ولم يجبهم فيما طلبوا لكن جعل هناك أمثلة آتاها الرسول عليه الصلاة والسلام لتكون حجة له وهذا يفيد أهل الحق في نزاعهم مع أهل الباطل ، في أن لا ينساقوا معهم في كل ما يطلبونه ، بل يكفي أن يقيموا الحق بدليله ، وبرهانه في مسائل مما يفترضون أو مما يطلبون ، ثم لا ينساق معهم بعد ذلك وهذا يظهر لك في ضعف طائفة من المسلمين وخاصة في هذا الزمن في الجواب عن شبهات المشركين ، وشبهات الكفار من والنصارى واليهود وأذنابهم من المستشرقين وغيرهم فإنهم أكثر من إيراد الشبة على القرآن وعلى الرسالة وعلى وحدانية الله جل وعلا وعلى صحة التدين بدين الإسلام ، إلى آخر ما أوردوه ، فضعفت طائفة فأرادوا أن يجيبوا عن كل ما أوردوه من الشبه ، وهذا ليس منهجاً صحيحاً بل المنهج الصحيح أن تقيم

الحق بدليله ، أن تقيم الحق الذي أنزله الله جل وعلا ، وأن تفهمه الناس والشبه أو ما يطلبه أولئك من جواب الشبه فيكفي أن ترد بعضه لدحض قولهم وافتراءاتهم أما الإنسياق معهم في كل ما يريدون فهذا خلاف مع ما نعلمه من منهج الحِجاج مع المشركين والكفار في كتاب الله جل وعلا ، فالمؤمن يجب عليه أن يستعلي بإعلاء كلمة الله جلا وعلا له بلا إله إلا الله وأن لا يضعف أمام أهل الباطل فيما يوردون والله سبحانه وتعالى بين ذلك أتم بيان في كتابه .

فلهذا قال بعد هذه الآية ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا ﴾ لأن المسألة إنما هي اتباع للأهواء ، ذرهم : يعني اتركهم ، ذرهم يخوضوا ويلعبوا ، والخوض واللعب صفة ﴿ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي ﴾ يمكن آية الزخرف ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى ﴾ نعم هنا : ﴿ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون ﴾ ﴿فذرهم حتى يلاقوا ﴾ وفي الآية التي ذكرت لكم : ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون ﴾ يعني في الدنيا أو في الآخرة ، إما في الدنيا بالموت أو في الآخرة حين تأتي الصعقة التي لا يسلم منها أحد حيث قال عليه الصلاة والسلام (يُصعق الناس فأكون أول من يفيق ..) الحديث ﴿ يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون ﴾ هذا تهديد ووعيد لهم ، والتهديد يفيد القلوب العاتية كما أن الترغيب يفيد القلوب المطمئنة أو القريبة ، والجمع بينهما يفيد القلب الذي فيه هذا وهذا قال ﴿ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون * يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون ﴾ في قوله جل وعلا هنا ﴿ لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا

هم ينصرون هذا فيه إثبات لصفتين من الصفات التي تلازم الكفار وهي:
1ـ ظنهم أنهم أغنياء بقوتهم أو بأبدانهم بأموالهم
2ـ والثانية أنهم سينصرون من أولياءهم في القرآن تجد نفياً لهذا ونفياً لهذا في آيات كثيرة مجتمع النفيين ومنفصل أيضاً ، وغناهم بالأموال والأولاد وما عندهم كما قال سبحانه وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زُلفى الآيات ، والنصرة بالآلهة التي اتخذوها أولياء كما في قوله فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة قال سبحانه بعد ذلك وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون قد تبين لك أن معنى قوله عذاباً دون ذلك أن المراد به عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، والظلم هنا المراد به الشرك لأنهم ظلموا ، لأن أهل الشرك ظلموا أعظمُ الظلم ، ظلموا أعظم الظلم في حق الله جل وعلا إذ ادعوا أن معه آلهة أخرى قال ولكن أكثرهم لا يعلمون نفي العلم هنا راجع إلى شيئين :
الأول : أنه راجع إلى عدم العلم بالحق ، وهذا تكون معه الواو استئنافية .
الثاني : عدم العلم بوقت مجيء هذا العذاب أو أنه سيأتيهم لا محالة وهذا تكون الواو عاطفة على ما قبلها عطف الجمل قال وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون وكلتا الصفتين عدم العلم بالحق وعدم العلم بمتى يجيء العذاب جاءت في القرآن في مواضع كثيرة ثم قال سبحانه واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا هذا الأمر بالصبر أمر للوجوب ، وحقيقة الصبر كما هو معلوم أن يصبر لما حكم الله جل وعلا به شرعاً وما حكم الله

جل وعلا به قدراً لأن الحكم في القرآن ينقسم إلى حكم ديني شرعي وإلى حكم كوني قدري كأمثاله من الإرادة والأمر والقضاء وأشباه ذلك ، فالصبر هنا للحكم الشرعي الديني بأن لا يلتفت الصابر إلى ما يشبه به المبطلون ولا إلى ما يوردونه ولا إلى ما يعارضون به الرسالة فلتصبر على هذا الحق حتى يأتي وعد الله جل وعلا وهذا مكلف وصعب وهو أصعب النوعين .

والثاني : الصبر لحكم الله الكوني القدري وهذا يمكن للكثيرين أن يصبروا عليه ، ولكن الصبر الصعب الصبر الذي يشق على النفس ، هو الصبر على حكم الله الشرعي ، ولهذا في آيات كثيرة نهى الله جل وعلا نبيه عن الاستعجال كما قال سبحانه فاصبر كما صبر أولي العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون الآية .

فإذاً الصبر هنا المأمور به الصبر على حكم الله الشرعي والصبر على حكم الله الكوني القدري ، أما الصبر على حكم الله الشرعي أن يستمسك المرء بالتوحيد وبما أنزل الله جل وعلا ولا يميل إلى أولئك ، الكفرة وإلى أولئك المشركين ، والله سبحانه عصم أولئك المشركين ، والله سبحانه عصم نبيه وثبته وغيره يجب عليه أن يخاف كثيراً من الميل عن الصبر على حكم الله الشرعي كما قال سبحانه لنبيه ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات كاد يركن إليهم شيئاً قليلاً يعني في الأمور الدينية ولولا أن ثبته الله لما صبر لوقع في ذلك ، وهذا يوجب على كل مؤمن وخاصة من كان يخالط أولئك أو يجاهدهم باللسان أو بالسنان أن يخاف

اشد الخوف من أن يركن إليهم وأن يترك الصبر على دين الله الصبر على ما جاءت به الشريعة ، الصبر على الأحكام ، الصبر على الحق الذي علمه ، ومنه تعلم أن الذين تنازلوا عن الحق ودخلوا في مصالحات مع أهل الباطل بأنواع من المصالحات إما الفكرية أو الدينية وظنّوا أن هذا فيه مصلحة ، أن هذا ترك للصبر الواجب الذي أمر الله جل وعلا به ، ليس المهم عندنا أن يصلح الناس وإنما المهم أن نوافق الحكم الشرعي في صلاح الناس ، لأن الزمن الحكم فيه ليس لنا ، وإنما هذا قدر الله جل وعلا يمضي في خلقه فنوح عليه السلام مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ومع ذلك فهو صابر على حكم الله جل وعلا الكوني ، وعلى حكمه الشرعي وما مال إلى القوم وما صالحهم ، والنبي عليه الصلاة والسلام لما عرضوا عليه قومه المصالحة أنزل الله جل وعلا سورة البراءة العظيمة قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون فإذاً لا مداهنة مع أهل الباطل في الحق الواضح الذي أنزله الله جل وعلا في كتابه ، وهم يودون أن لو نترك بعض الحق حتى ينتصروا ، لهذا قال سبحانه وتعالى ودُّوا لو تُدهنُ فيدهنون فيجب على كل أهل الإيمان أن يصبروا على الحق الذي معهم وأن يصبروا على ما جاءت به الشريعة وأن لا يلتفتوا إلى غير ذلك ، كما أنه واجب عليهم أن يصبروا على حكم الله الكوني بتأخر النصر ، أو بما يحصل لأهل الإيمان من الابتلاء أو ما أشبه ذلك ، فهذا الأمر لله جل وعلا من قبل ومن بعد فيه ذكر لمعنى الربوبية الذي فيه التصرف في الكون والتصرف في الملكوت والقدر فكلمة حكم ربك هذه حكم ربك فيها رجوع المؤمن إلى

معاني توحيد الربوبية والصبر والحكم متعلقان بالربوبية يعني باستحضار معاني الربوبية ، ثم الصبر يكون عبادة راجعة إلى توحيد الإلهية قال ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ والأعين هنا المراد بها كما سمعتم فإنك بكلائتنا ورعايتنا وفي مرأى منا ومسمع وهذا من التفسير باللازم ، لأن الأعين هنا ، لما أضافها الله جل وعلا إلى نفسه فإن المراد منها إثبات الصفة ، صفة العينين لله جل وعلا ، وقوله ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ في الباء هذه أفادت أن المراد لازم الأعين ، لازم النظر ، وهو الكلأ والرعاية كما في قوله سبحانه في الآية الأخرى ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ﴾ يعني بمرأى منا وبكلائة ورعاية ، والأعين هنا جمعت وجمع الأعين لله جل وعلا لا يعني أن له أكثر من عينين بل صفة الله سبحانه وتعالى أن له عينين سبحانه وتعالى كما ثبت في الحديث ﴿ وإن ربكم ليس بأعور ﴾ يعني أن له سبحانه وتعالى عينين جل جلاله وهذه جاءت في القرآن مجموعة ، والجمع يتبع قاعدة لغوية وهي أن إضافة المثنى إلى ضمير الجمع ن الأفصح فيه أن يجمع المثنى ، فالمثنى إذا أضيف إلى ضمير جمع أو ضمير تثنية أيضاً فإن الأفصح أن يجعل المثنى جمعاً ، وهذا هو الذي جاء في القرآن ، كما في قوله سبحانه ﴿ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديَّ ﴾ وهذا مثنى ثم قال في آية سورة يس : ﴿ أو لم يروا أنَّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ﴾ ويتضح لك ذلك بقوله سبحانه في سورة التحريم ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ والمخاطب امرأتان ولكل امرأة قلب ، ومع ذلك لما أضاف القلبين إلى ضمير تثنية جمع ، لأن ذلك هو الأفصح ، وإلا فالأصل فقد صغا قلباكما ، لكن هذا ليس

الأفصح ، والأفصح أن يجمع فلهذا قال فقد صغت قلوبكما مع أنهما قلبان ، المقصود أن من استدل بهذه الآية على أن الله جل وعلا يوصف بالأعين دون العينين فإن هذا غلط في الاعتقاد وغلط في الاستدلال ، لأن الجمع هذا ليس المراد منه الجمع ، وإنما المراد منه التثنية ، لأن الإضافة تدل على ذلك بدليل حديث (إن ربكم ليس بأعور) وفي اللغة أن الأعور هو فاقد أحد العينين .

قال سبحانه وتعالى فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم * ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم

سمعت كثرة الاختلاف للسلف في قوله جل وعلا هنا وسبح بحمد ربك حين تقوم في قوله حين تقوم هل هو القيام من المجلس أو القيام من الليل في الصلاة أو القيام إلى الصلاة ، التسبيح في أول الصلاة دعاء الاستفتاح وهذا كله راجع إلى فهم قاعدة ، وهي أن الألفاظ المجملة في القرآن التي لا يستبين المراد منها وجاءت بأمر أو نهي ، فإنه يستوضح أو يستبان الإجماع بالرجوع إلى السنة لأن السنة مبينة لمجمل القرآن فرجعت طائفة إلى السنة فوجدوا أنه حين يقوم المرء للصلاة يدعوا بدعاء الاستفتاح بعد التكبير ، سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك ، فقالوا المراد بقوله : وسبح بحمد ربك حين تقوم إلى الصلاة لأن النبي كان إذا قام في الصلاة دعا بهذا الدعاء في أول الصلاة .

وقالت طائفة : المراد بها كفارة المجلس وقد سمعت كلام ابن كثير فيها الطويل وحديث كفارة المجلس علَّه طائفة من أهل العلم كالبخاري ، وحصلت فيه المناظرة المعروفة ما بين البخاري وما

بين مسلم إذ عارض مسلم رحمه الله تعالى البخاري في استدلاله بهذا الحديث إذ عرض البخاري مسلماً في استدلاله بهذا الحديث فقال مسلم إنه صحيح ، فقال البخاري ليس كذلك بل له علة فجثا مسلم بين يديَّ البخاري وقال يا أستاذ الأستاذين ويا طبيب الحديث في علله أفدني فذكر له علته بما هو معروف وليس هذا مكان إيضاح ، وهناك من قال : حين تقوم يعني حين تقوم من الليل واستدلوا له بحديث من تعارَّ من الليل فقال لا إله إلا الله ، الحديث الذي ساقه عند الإمام احمد وعند غيره المقصود أن هذا ، تأخذه قاعدة لك في أن اللفظ المجمل في القرآن إذا جاءت السنة فيه بأوجه فإن الخلاف فيه سائغ وهذا له أمثلة كثيرة في اختلاف السلف في التفسير فمن علم السنة ، علم وجه اختلاف السلف فيه لأن اختلافهم في التفسير إما أن يرجع لدلالات في القرآن مختلفة وإما أن يرجع لدلالات في السنة مختلفة وإما أن يرجع إلى دلالات في اللغة مختلفة مثل مثلاً والليل إذا عسعس * والصبح إذا تنفس نعم قال والليل إذا عسعس هنا عسعس هل هو الإقبال أو الإدبار ؟ اختلفوا فيه هذا من جهة دلالات اللغة وهذه المسألة الأخيرة ذكرها شيخ الإسلام في أصول التفسير في قاعدته المعروفة أو المقدمة المعروفة ، فإذاً حين يختلف السلف في التفسير فإما أن يرجع هذا الاختلاف إلى اختلاف الآيات ، فإما أن ترجع هذا الاختلاف إلى اختلاف في السنة فيما يتعلق بلفظ الآية ودلالتها ، وإما أن يرجع إلى الاختلاف في اللغة وبهذا يحصل لك تقريب كثير في اختلاف أقوال السلف وفهمها في التفسير قال سبحانه وسبح بحمد ربك حين

تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم والتسبيح تسبيح الله جل وعلا معناه التنزيه والإبعاد عن النقائض ، فإذا اجتمع التسبيح والحمد صار أعظم كمال في الثناء ، لأن التسبيح تنزيه عن النقائض والحمد إثبات للكمالات ، الحمد ثناء بإثبات أنواع الكمالات لله جل وعلا ، كمال الذات وكمال الصفات وكمال الأفعال ، كمال الشرع والقدر جميعاً والتسبيح فيه التنزيه عن النقائض في الذات وفي الصفات وفي الربوبية والألوهية والأفعال وفي الشرع وفي القدر ولهذا صار أعظم الكلام سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هذا أحب الكلام إلى الله والجمع بين التسبيح والحمد هذا هو الكمال في الثناء فقول القائل : سبحان الله وبحمده أعظم ثناءً من سبحان الله وحدها وأعظم ثناءاً من الحمد لله وحدها ، وإذا قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فهذا أعظم الكلام وأحب الكلام إلى الله فإن زاد لا حول ولا قوة إلا بالله ، صارت هذه الكلمات هي الباقيات الصالحات التي يتنافس فيها المتنافسون ، كما جاء في تفسير قوله والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً .
أسأل الله جل وعلا أن يجعلني وإياكم ممن خفَّ على لسانه ذكر الحق جل وعلا فسبحه وحمده في كل حال من الليل ومن النهار وفي كل تقلباتنا وأحوالنا .

* * *